العرب الأذلاء والثور الأبي

د. حامد العطية

لا تسخروا من الثور فقد دخل التاريخ قبلكم ورفعته الشعوب إلى العلاء ليكون إلهاً معبوداً ورمزاً لشريان حياتهم، وتكفي اطلالة سريعة على التاريخ ليتأكد لنا ذلك، اتخذ البابليون القدامى مردوخ ربهم الأعلى، ومعنى مردوخ "عجل رب الشمس"، واعتقد الأشوريون بأن وضع تماثيل الثور المجنح ذي الوجه البشري عند مداخل مدنهم وقصور ملوكهم يحميها من الأعداء، وكان الثور رمزاً لإله العواصف والمطر "إداد"، وتخيلوه مرتدياً خوذة يزينها قرنا ثور، وفي ملحمة جلجامش تطلب الربة عشتار من أبيها اعطاءها "ثور السماوات" للقضاء على جلجامش عقاباً له على رفضه الزواج منها، وكانت أول نخرة من الثور كافية للقضاء على مئة من البشر، لكن أنكيدو كان له بالمرصاد فامتطاه وأمسكه من قرنيه وعاونه جلجامش على قتله. في مصر الفرعونية أيضاً عبدوا الثور، كرمز للرب آمون، وكان للثور في عقائد الهند واليونان وروما أهمية ملحوظة، وحتى اليوم تحمل إحدى البروج السماوية اسمه، وبدلاً من عبادة الرب الذي أنجاهم من فرعون اتخذ اليهود في زمن موسى وهارون عبادة صنم بصورة عجل ذهبي.

أين هو الثور الأبي؟ في حكاية حكمية من العراق، لم يستفد منها العراقيون، قيل أن أسداً أصابه جوع شديد فخرج من عرينه يبحث عن طريدة، حتى بلغ كوخاً لفلاح فقير، لا يمتلك من حطام الدنيا هو وعائلته سوى ثور يستعين به في الزراعة. توقف الأسد الجائع عند بيت الفلاح لا يفصل بينه وبين الثور سوى سور رفيع من جريد النخل، ولو وثب أعلى السور لنزل فوق ظهر الثور. أحس به الثور فلم يرفع صوته لينبه مالكه لوجود الأسد

لعلمه بأن لو خرج مالكه لمواجهة الأسد فسينتهي في بطنه في غضون دقائق. صمم الثور واستعمل عقله ثم أنشد بصوت يسمعه الأسد وبلغة الحيوانات:

اسمع يا أبا الذبيب (أي الذباب تحقيراً للأسد)

ذيلي منشة لك

بولي مزلقة لك

والله لو لحتك يا أبا الذبيب لأكلنك

ذهل الأسد من نشيد الثور وما انطوى عليه من استهانة به وتحقيراً له وهو ملك الحيوانات قاطبة، ودخل التردد والخوف في قلبه، فصار يرتعد فرقاً، وبعد قليل ولى الأدبار وهو يموء مواء القطط لا زئير الأسود، وهكذا نجا الثور الحكيم ومالكه الفلاح الفقير وعائلته من الأسد، وبعد فلا تسخروا أيها العرب من الثور، وتمثلوا بالحكمة التالية: خذ الشور من رأس الثور ولا تأخذه من رأس العربي الجبان الذليل، الذي خان أمته وخذل فلسطين، وهي أهم من أمه وأبيه وفصيلته التي تأويه وصار عبداً مستسلماً خانعاً لأعداء دينه وأمته. ولو أراد هؤلاء العرب استعادة كرامتهم فليذهبوا إلى الثور الحكيم ليمسحوا جبهاتهم بذيله، ويشربوا من بوله المقوي للعقل والإرادة وعزة النفس والشجاعة.